بسم الله الرحمن الرحيم

العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية

• الإسلام حضارة كاملة ، ودستور شامل لأمور الحياة دينا ودنيا.. ولما كانت الحرب ظاهرة اجتماعية ، فقد عالجها الإسلام ، ووضع لها المبادئ الرئيسية لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وأساليب إدارتها وقوانينها وآدابها .

والباحث المنصف يجد فى تعاليم الإسلام المستقاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة القولية والفعلية والتقريرية ، كل ما تحتويه المدارس العسكرية العالمية فى الشرق أو الغرب من نظريات أساسية فى شئون الحرب .

وبذلك يمكن أن يقال : إن العرب أصبح لهم بعد الإسلام مدرسة عسكرية لأول مرة فى تاريخهم .

• وكان الرسول ﷺ قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول .. وإذا كان علماء النفس وخبراء القيادة العسكرية قد استخلصوا الصفات التى يجب أن يتحلى بها القائد الكفء . وذلك من خلال دراستهم لشخصيات أبرز القادة فى التاريخ الحربى ، فذكروا منها قوة الشخصية والشجاعة واليقظة

والحسم وقوة التحمل والتواضع والمبادأة والنزاهة والروح المرحة والذكاء والعدل والحكمة واللباقة ؛ فإن كل هذه الصفات بل وصفات أخرى غيرها قد اجتمعت لدى الرسول القائد ﷺ ، فهو المثل الكامل والقدوة المثلى كما يقول الله تعالى :﴿لقد كان لكُمْ فى رسُول اللَّهِ أُسْوةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب : ٢١]

وكما خاطبه بقوله : ﴿وإنَّكَ لعلَى خُلقٍ عَظيم﴾ [القلم : ٤]

فقد وضعه الله تحت حراسته ورعايته حتى حدث هو عن نفسه فقال : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» .

فلا عجب إذن أن يظهر الرسول القائد ﷺ فى الأمور العسكرية ما يثير الإعجاب والتقدير من عبقرية فذة فى القيادة والتخطيط وإدارة المعارك .

• وفى المدرسة العسكرية الإسلامية ، تعلم أجدادنا المسلمون الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام الأول ، وطبقوا تعاليمها ونظرياتها عمليًّا فى ميادين القتال ، دفاعًا عن الدين والأمة ، فكانوا مضرب الأمثال فى القيادة والشجاعة والعبقرية الحربية ، وأثبتت نظريات تلك المدرسة عمليًّا صحتها وكمالها .

وتاريخ معارك الإسلام فى عصر النبوة وحده – على سبيل المثال – يشهد للمسلمين بقدرتهم وكفاءتهم العالية على القيام بجميع أشكال

العمليات العسكرية كالدفاع والهجوم والمطاردة والتخلص من المعركة ومسير الاقتراب ، والإغارات وأعمال الاستطلاع والمخابرات والحرب النفسية ودوريات القتال ؛ والهجوم على القرى والمواقع الحصينة وأعمال الحصار .. الخ .

وقيام المسلمين بهذه العمليات المتنوعة ، دليل على كفاية تدريبهم عليها كما يقول فيلسوف الحرب كلاوزفتز : «يمكن للقوات العسكرية المدربة جيدًا أن تقوم بجميع الأعمال العسكرية» .

* ولعل أبرز ثمار المدرسة العسكرية الإسلامية نتيجة لتطبيق نظرياتها وتعاليمها على أيدى الرجال الذين تعلموا فيها هو ما أصبح من حقائق التاريخ التى لاتنازع والتى نذكر منها ما يلى :

١ – تأمين الدعوة وتأسيس الدولة الإسلامية ، وتحقيق الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها لخير البشرية .

٢ – امتداد الفتوحات الإسلامية فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربًا .

٣ – تمكين الأمة الإسلامية الناشئة من إدارة دفة الحرب فى جبهتين عظميين فى «وقت واحد» فى مواجهة أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت هما فارس وبيزنطة والانتصار عليهما ، وهذا مثل فريد فى التاريخ الحربى .

٤ – إتقان العرب – وهم أبناء الصحراء – ركوب الأساطيل والحرب البحرية وتغلبهم على أسطول بيزنطة وهى كانت أعظم قوة بحرية فى زمانها .

٥ – فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية لخير البشرية فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية .

• لكن لماذا لم ندرس «العسكرية الإسلامية فى معاهدنا» ؟؟

الواقع أنه قد أريد بالعسكرية الإسلامية أن تنطمس معالمها فى إطار حرب حضارية طاحنة ، تستهدف طمس معالم الحضارة الإسلامية ومنع قيامها من جديد . وكان من آثار ذلك أن عاشت دول عربية وإسلامية كثيرة تعتمد زمنًا طويلاً على الدول الأجنبية فى مجال العلم العسكرى ، وفن الحرب سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية ، فأصبح رجال العسكرية فيها يدرسون النظريات العسكرية الأجنبية ، وأعمال القادة الأجانب ، والتاريخ العسكرى للدول الأجنبية ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين نظريات عسكرية ، ولا قادة ولا تاريخ عسكرى يستحق الدراسة ، كما عاشت تلك الدول تعتمد على الدول الأجنبية أيضًا فى تزويد جيوشها بالسلاح والعتاد ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين قدرة على الصناعة الحربية أو بحوثها العلمية !!

• وهكذا كان فرض التبعية على العرب والمسلمين فى مجال الفكر العسكرى وفن الحرب هدفًا من بين أهداف الحرب الحضارية ، التى شنها الأعداء على الأمة العربية والإسلامية . ودليلنا على ذلك هو ما يلى :

١ – إن الباحث المطلع يلاحظ أنه منذ عصر النهضة حتى اليوم ، وضعت آلاف الكتب حول الإمبراطورية الرومانية ، فى حين لا يتعدى ما كتب فى الغرب عن الفتوحات الإسلامية عدد أصابع اليد ، ويفسر لنا السر فى ذلك شاهد من الغرب هو الجنرال جون باجوت جلوب فى كتابه (الفتوحات العربية الكبرى) فيقول : «إن أوربا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات الإسلامية كوارث رهيبة ، ولم يكن ثمة مسيحى يود أن يذكره الناس بها ، وليس المؤرخون إلا بشرًا ، ولذا تثبط عزائمهم إذا لم يجدوا من يقرأ لهم ، فقد كتب سيمون أوكلى ، وهو أحد المؤرخين الإنجليز الأوائل الذين أرخوا للفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة ، وهو رهن السجن فى كمبردج وفاء لدين عليه ، ولم يكن دخله من بيع كتبه كافيًا لتمكينه من إعالة أسرته» .

٢ – إن من الباحثين الأجانب الذين تناولوا الأعمال العسكرية الإسلامية[1] من يدعى أن الإسلام كان متخلفًا فى المجال العسكرى ، وأنه لم يضف جديدًا إلى فن الحرب ، ومن أراد منهم أن يبدو موضوعيًا

---

(١) انظر التفاصيل فى المصادر التالية على سبيل المثال :

– صفحة ١٩٩ إلى ٢٠١ من كتاب

The Ensyclopedia of Military History (By Ernest Dupuy & Trevor N. Dupuy).

– وصفحة ٤٣ إلى ٤٦ من كتاب

The Arabs, A Short History (By Philip K. HITTI).

– وصفحة ٤٠٥ من دائرة المعارف البريطانية ج٢ .

فى دراسته نراه يركز كثيرًا على الدوافع المعنوية من الإيمان وقوة العقيدة ، ولا يتناول الجوانب الفنية للمعارك من زاوية العلم العسكرى وفن الحرب ، التى تزخر بها معارك الإسلام حقيقة . ولسنا هنا بصدد الرد على كتابات العسكريين الأجانب عن العسكرية الإسلامية ، فذلك أمر يتطلب مؤلفًا خاصًّا ، ولكننا نوجه السؤال المنطقى التالى : هل يقبل العقل أن تكون الشجاعة وقوة العقيدة وحدهما وراء النجاح فى العمليات الحربية للمسلمين دون أن يكون معهما شيء من الكفاية الحربية فى القيادة وأساليب القتال ؟ وهل يقبل العقل أن يكون من العرب رواد فى كل نواحى العلوم الطبيعية والاجتماعية ولا يكون منهم رواد فى فن الحرب ؟

٣ – وبعض المؤرخين يحاول أن يهون من عظمة المسلمين وانتصاراتهم ، فيعلل سرعة الفتح الإسلامى باندفاع الغرائز الحربية المتأصلة فى المسلمين منذ الجاهلية التى تدفعهم إلى السلب وأعمال القرصنة ، ويضيف إلى ذلك ضعف الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، وفى ذلك يقول الأستاذ عباس محمود العقاد[1] :

«وما يزال الأكثرون من المؤرخين المحدثين يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ، ويحسبون هذه الغلبة شيئًا قد حصل ، وكان ينبغى ألا يحصل ، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ، ومصادفة لا تقبل التكرار ، وبعضهم يلتمس العلة فيقول : إنها عقيدة المسلمين

(١) عبقرية خالد – عباس محمود العقاد (المقدمة – البادية والحرب) .

القوية ، وافتقار الفرس والروم إلى مثل هذه العقيدة ، وكل أولئك تعليل ناقص من كل نواحيه :

(أ) فالمصادفة ، لا محل لها فى حوادث الوجود ، ولا تطرد فى قتال بعد قتال ، من جوف الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين أفريقيا والصين .

(ب) وانحلال دولة من الدول ، قد يفنيها ويعجزها عن النصر ، ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكن .

(جـ) والعقيدة ، قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها ، ولكنها هى وحدها لا تغنى عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد ، وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادى حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ويومَ حُنَين إذْ أعْجبتكُمْ كَثْرتكُمْ فلم تُغْنِ عَنكُمْ شيئًا وضاقَتْ عليكُمُ الأرضُ بما رحُبتْ ثم ولَّيتُم مُدْبرينَ﴾

[التوبة : ٢٥]

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع إليها لفهم الغلبة الإسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية ، وهذه الحقيقة هى أن المسلمين أيضًا كانوا أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس

والروم ، وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وأن البادية العربية سواء فى عصور الجاهلية أو صدر الإسلام ، لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التى توهمها المؤرخون الأوروبيون ، بل معظم المؤرخين عامة ، ولا نحاشى منهم العرب والمسلمين» .

٤ – وفى اعتقادى أن أعداء الإسلام أرادوا – إحكامًا لتنفيذ مخططهم لطمس معالم العسكرية الإسلامية – أن يمنعوا رجال العسكرية المسلمين من تناول العسكرية الإسلامية بالدراسة ، فروجوا دعوى أن الإسلام قام بالسيف ، وهى دعوى مغرضة من بين أهدافها ، فرض نوع من الحساسية حول تناول الجوانب العسكرية فى الإسلام ، بحيث يؤثر الكتاب المسلمون المتخصصون تجنب دراستها من وجهة نظر العلم العسكرى وفن الحرب .

» من أجل ذلك فإن قضية أمتنا العربية والإسلامية اليوم هى مقاومة كل محاولة للغض من تاريخنا ، وطمس معالم حضارتنا ، وتحويلنا عن مقوماتنا الأساسية .

ونقطة الإنطلاق نحو النهضة الحضارية الشاملة ، هى إحياء العسكرية الإسلامية بالدراسة والتحليل والتمجيد على أساس النقاط التالية :

١ – التعريف بالمدرسة العسكرية الإسلامية ، وما تحتوى عليه من نظريات ومبادئ وأساليب وآداب ، وكل ما يتعلق بشئون الحرب .

٢ – تصحيح المفاهيم التى سادت لدى الدول الأجنبية وصدقها بعض العرب والمسلمين عن تخلف الإسلام فى مجال العلم العسكرى ، وفن

الحرب والتى حفلت بها المراجع الأجنبية التى تناولت تاريخ الحروب وتطور فن الحرب ، وذلك بالأسلوب العلمى المدعم بالحجة والبرهان .

٣ – توحيد العقائد والاستراتيجيات العسكرية للأمة العربية والإسلامية على أساس تعاليم الإسلام ، والمدرسة العسكرية الإسلامية ، والعمل بمبادئها ونظرياتها فى بناء قوتها الحربية وإعداد وتدريب قادتها ومقاتليها .

• هذه – فى يقينى – هى القاعدة الراسخة الثابتة ، التى يجب أن نقف عليها جميعًا اليوم ، ونثبتها فى عقول أبنائنا ونفوسهم ، حتى تكون بقيمها السامية ومقاصدها النبيلة ، حصنهم الأول الذى يحتمون فيه من سهام الغزو الفكرى العسكرى ، وقاعدة انطلاقهم نحو بناء القوة الذاتية لأمتهم ، ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾.

obeikandl.com